المحاضرة الخامسة

المغرب في عهد الدويلات المستقلة الأول (التاريخ الحضاري) :

ازدهر النشاط الاقتصادي في افريقية الأغلبية وتنوعت المحاصيل الزراعية مثل الزيتون والأعناب والنخيل ومختلف أنواع الفواكه والحبوب ، وتنوعت المعادن ، فقد اشتهرت مجانة بمعادنها الكثيرة كالفضة والحديد والرصاص والزنك ، وهو ما جعل الصناعة تزدهر بها ، ومن الصناعات المنتشرة في دولة الأغالبة صناعة آلات الحديد المستخدمة لصناعة السفن والسيوف والسروج ولجم الخيل ، وكذا صناعة التحف الذهبية والفضية ، وصناعة الزجاج ، حيث اشتهرت القيروان بوجود حي خاص بالزجّاجين ، وكذلك صناعة الخزف المتأثرة بالصناعة العراقية ، ضف إلى ذلك صناعة السجاد والمنسوجات ، حيث كانت تنسب إلى سوسة المنسوجات السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع ، كما تم ضرب السكة عند الأغالبة وتم ضرب الدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، وقد ازدهرت التجارة عند الأغالبة والحياة الاقتصادية بشكل عام [1] ، أما عن التركيبة البشرية للأغالبة فهي مزيج من الأجناس حيث وصف ذلك اليعقوبي الذي عاصرهم (توفي 284 هـ) مدينة القيروان بقوله : ((وفي مدينة القيروان أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وبها أصناف من العجم ومن أهل خراسان ومن كان وردها مع عمال بني هاشم من الجند ، وبها عجم من عجم البلد البربر والروم وأشباه ذلك)) [2] ، أما عن أشهر منجزات الأغالبة فهي متنوعة مثل المسجد الجامع بالقيروان ، وهو أقدم مساجد الغرب الإسلامي والذي اختطه عقبة بن نافع ، وجامع الزيتونة بتونس ، حيث اشتهر كجامعة علمية منذ عهد الأغالبة غير أن تاريخه يكتنفه الغموض والمعلومات عنه شحيحة (قيل بناه عبيد الله بن الحبحاب سنة 114 هـ وذكر النويري أن الأغالبة شرعوا في بنائه سنة 248 هـ) ، وظل مركزا

---

[1] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 407 وما بعدها .

[2] اليعقوبي : البلدان ، وضع حواشيه : محمد أمين ضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د. ت ، ص 187 .

لتدريس مختلف العلوم ، وهناك المسجد الجامع بسوسة الذي أقيم مقابل البحر ، ومن المخلفات الأخرى للأغالبة الرباطات مثل رباط سوسة (206 هـ) الذي كانت غايته الأولى ذات بعد حربي ، وكذا رباط المنستير (بناه هرثمة بن أعين في 182 هـ) الذي تم تعميره بالبيوت وغيرها بعد بنائه ، ومنها سور سوسة (245 هـ) المزود بأبراج ضخمة ، كما انشأ الأغالبة مدينة العباسية سنة 185هـ بجانب مدينة القيروان (حوالي 3 ميل) ، وكذا مدينة رقّادة (264هـ) ، كما انشؤوا الخزانات والمواجل والقناطر وغيرها [3] .

أما عن الدولة الرستمية فقد اهتم حكامها بالحياة العلمية وساهموا في نشر العلوم بل وكان بعضهم من صُنّاعها فقد كان عبد الرحمن بن رستم عالما في علوم الدين واللغة والفلك ، وألّف كتابا في التفسير لم يصل إلينا وكان الإمام عبد الوهاب مشجعا للعلوم ويبعث بالأموال لشراء الكتب من العراق وصنف كتابا سماه نوازل نفوسة ، وكان الإمام افلح متبحرا في علوم الحساب والفلك ، وقد شاركت النساء في بعث الحركة العلمية مثل أخت الإمام افلح التي برعت في علم الحساب والتنجيم والفلك ، وعلى أيّة حال فقد انتشرت مختلف العلوم الدينية والرياضيات والطب والكيمياء وغيرها ، ومن المراكز العلمية في دولة الرستميين مدينة تاهرت وجزيرة جربة وورجلان (ورقلة) وحواضر جبل نفوسة ، وقد اشتهرت تاهرت بمكتبة المعصومة التي ضمت 300 ألف مجلد في مختلف العلوم غير أن الغزو الفاطمي خربها واتلف مصنفاتها .

أما عن الحياة الاقتصادية فقد كانت الزراعة منتشرة في مختلف الحواضر لكثرة الوديان التي تغذي الزروع والثمار كوادي شلف ووادي عين سوفجج وبذلك تنوعت المحاصيل كالحبوب والفواكه والغلال والنخيل والزيتون ، كما نشطت التجارة فكانت السفن الأندلسية تصل الموانئ الرستمية في تنس ومستغانم ووهران والقوافل تسير إلى سجلماسة وبلاد السودان وغانة وفاس والقيروان ، وقد ساعد على ذلك توسط الحواضر الرستمية مختلف المناطق ، ومن أشهر المنتجات الرستمية المنسوجات الصوفية والكتانية والحرير والزجاج والخزف والأصواف

[3] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 422 وما بعدها.

والتحف المعدنية وكانت تستورد من السودان وغانة والذهب والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات ، وقد انعكس ازدهار التجارة بالإيجاب على الحياة الاجتماعية فانتشر الثراء واتسع العمران وكثر الوافدون إلى الحواضر الرستمية لرخاء العيش .[4]
وقد شيد الرستميون قصورا عظيمة ومباني فخمة وكثرت العمائر وتوسعت فقد ذكر ابن الصغير عن عصر الإمام افلح قوله ((قد عمر في إمارته (يقصد الإمام افلح) ما لم يعمر أحدا ممن كان قبله ...وشمخ في ملكه وابتنى القصور واتخذ بابا من حديد وبنى الجفان ... وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات واتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والافاق بأنواع التجارات ، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة واجروا الأنهر)) [5] .
غير أن تلك المعالم اندثر معظمها عقب سقوط ملك الرستميين على يد الفاطميين ، فقد اضمحلت مدينة تاهرت وهجرها علماؤها وكبراؤها ، وهاجرت الأسر إلى بلاد الصحراء بعيدا عن النفوذ الفاطمي .[6]

أما عن دولة بني مدرار فقد كانت مدينة سجلماسة من أشهر مدن المغرب وكانت تقع وسط واحة كبيرة خصبة يقصدها المزارعون والرحل لتبادل المنتجات ، وقد ساعدها موقعها الممتاز في تنشيط الحركة التجارية بين المغرب والمشرق وبلاد السودان ، حيث ازدهرت تجارة القوافل وانتظمت مسالكها ، وقد بسط المدراريون نفوذهم على المناطق المجاورة ونشط اقتصادها لتوفر المزروعات المتنوعة والصناعات كصناعة الفخار وازدهار التجارة خاصة تجارة الذهب ، وتنوعت المواد المتاجر بها من ملح وفخار وذهب ورقيق وغيرها [7] .

أما عن سكانها فقد كانوا خليطا من الأجناس غالبيتهم من البربر وأكثر هؤلاء البربر من صنهاجة ، غير أن زروعها وثمارها تعتمد في الغالب على مياه الأمطار على حد قول اليعقوبي [8] ، وقد نقل لنا ابن حوقل (ت 367 هـ) وصفها بقوله : ((

---

[4] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 574 وما بعدها .
[5] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 52 .
[6] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 580 وما بعدها .
[7] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص ص 32 – 33 .
[8] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 198 .

وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل ... فيُزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة ... فكلما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى حصدوه إلى سبع سنين ... ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ولهم رطب اخضر من السلق في غاية الحلاوة ، وأهلها قوة سراة مياسير يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر ، مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة ، وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية)) [9] . أما الاصطخري صاحب كتاب المسالك والممالك (ت حولي 346 هـ) فقد ذكر أن سجلماسة منقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال وأنها قريبة من معدن الذهب [10] .

وعن دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى فقد شهدت تقدما وازدهارا (خاصة في مرحلتها الأولى (172-223هـ) في مختلف النواحي فنظموا دولتهم واتخذوا لقب الأئمة وأحدثوا الوزراء والكتابة والقضاء واهتموا بالجانب المالي فجبوا المال وأنفقوه على الوجه الشرعي وأولوا اهتماما بالجيش [11] الذي كان في البداية بربريا صِرفا ثم تعددت أجناسه من عرب وأفارقة وأندلسيين وفرس قادمين من العراق ، وكانوا على مستوى عال من التدريب والكفاءة وتعددت أسلحته من سيوف وقِسِي وسهام وأقواس وخناجر ودروع ورماح وخوذ حديدية وغيرها .

أما عن المجتمع الإدريسي فتشكل عموما من العرب والبربر والسودان وأقليات من اليهود وعناصر أندلسية وغيرهم وقد تمكنت السلطة الإدريسية من توحيد كل تلك العناصر واختفت كل أنواع الضغائن والفروقات والإختلالات وتميزت المرأة بمكانها المتميز والمحترم ضمن التشكيلة المجتمعية الإدريسية ، وبعد أن ضاقت

---

[9] ابن حوقل : صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992 ، ص 90 .

[10] الاصطخري : المسالك والممالك ، طبعة ليدن ، 1870 ، ص 39 .

[11] سعدون عباس نصر الله : دولة الأدارسة في المغرب - العصر الذهبي 172 – 223 - ، ط 1 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1987 ، ص 115 .

مدينة وليلي بالسكان قرر الإمام إدريس الثاني بناء عاصمته الجديدة وهي مدينة فاس (شرع في البناء 192هـ) التي ظلت مركزا حضاريا عبر الأزمنة المتعاقبة [12].

وقد اهتم الأدارسة بالزراعة حيث توفرت مياه السقي التي مصدرها مياه الهواطل أو الأنهار الجارية لذلك شقت القنوات وكثرت المزروعات كالقمح والشعير والذرة والأرز والقطن والكتان ومختلف الغلال والفواكه ، كما عمل الأدارسة على الاهتمام بالصناعة كالغذائية (طحن الحبوب وعصر الزيتون) وصناعة النسيج والألبسة والجلود والصناعات المعدنية والخزفية ، وقد ازدهرت التجارة ، لتوفر المنتجات المتاجر بها وتوفر الأمن والسكينة وجهود الأئمة في تطوير التجارة بتشجيع المنتجين وتامين الطرق وحماية القوافل والاهتمام بالموانئ ، واهم البضائع التي تحملها القوافل للتجارة المصنوعات الحديدية والنحاسية والزجاجية والقرنفل والبخور والتوابل والمنسوجات والمعادن والعاج والجلود .[13]

[12] عن تفاصيل بناء مدينة فاس انظر: ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972 ، ص 32 وما بعدها .

[13] سعدون نصر الله : دولة الأدارسة ، ص 127 وما بعدها .